الحرية الدينية في الإسلام
ومواقع الحوار مع الآخر

الإرث التاريخي ، المقولات الدينية المتعصبة ، العقد المرضية

الدكتور أحمد عيساوي

جامعة باتنة – الجزائر

يقول صموئيل بي هانتيغتون في مقاله الشهير " الإسلام والغرب – آفاق الصدام " عن صدام الحضارات: ((.. ويقوم افتراضي على أن المصدر الأساسي للصراع في هذا العالم الجديد لن يكون إيديولوجيا أو اقتصاديا في الأساس، فالتباينات بين الجنس البشري والمصدر المحوري للصراع ستكون ثقافية .. وستظل الدول القومية أكثر الوحدات الفاعلة قوة في الشؤون الدولية، غير أن الصراعات الأساسية في السياسة الدولية ستقع بين دول وجماعات صاحبة حضارات مختلفة . وسيهيمن صراع الحضارات على السياسة الدولية، وستكون الفوارق الفاصلة بين الحضارات بمثابة خطوط القتال في المستقبل. وسيشكل الصراع بين الحضارات آخر مراحل تطور الصراع في العالم المعاصر..)) .

صموئيل بي هانتيغتون ، الإسلام والغرب – آفاق الصدام - ، ترجمة مجدي شرشر ، مكتبة مدبولي ، الطبعة الأولى ، 1415هـ 1995م ، ص 5 و 6.

*** المدخل :**

تتوزع الساحة الاتصالية السياسية والحضارية العالمية اليوم ثلاث نظريات فلسفية شاملة لمختلف أبعاد العلاقات الدولية الثقافية والحضارية لسكان المعمورة ، تكاد تندرج ضمنها سائر المفاهيم والرؤى والتصورات الفكرية والثقافية والمعيارية لنمط التواصلات الحضارية بين مختلف الأمم والحضارات الإنسانية في ظل قرن العولمة والاتصالات الإنسانية الحرة والمفتوحة والسريعة والمتدفقة ، وهذه النظريات المسيطرة على نمط وصيرورة التفكير العالمي : هي :

1 – نظرية صدام الحضارات.

2 – نظرية حوار الحضارات.

3 – نظرية تعارف الحضارات.

ولنحاول –الآن- تفكيك الأسس الفلسفية والتاريخية والنفسية والسياسية لأصحاب كل نظرية على حدة ، لنتبين موقع ما نطرحه من هذه الأبنية المتباعدة والمتناقضة.(1)

1 – نظرية صدام الحضارات:

أو كما يحلو لِأصحابها وأعدائها تسميتها بنظرية صراع الحضارات ، وهي نظرية تقوم وتأسس على جملة من التناقضات والتراكمات الموروثة عن الحقب التاريخية الماضية ، وعلى جملة من التصورات المرضية للذات وللآخر المغاير ، وعلى جملة من تراكم المخلفات المرضية الأفقية والعمودية ، ك : الاستعمار ، وعقدة المركزية ، وعقدة التفوق ، وعقد نظريات الصعود والتفوق الجنسي والعرقي ، وعقد كرّاهية الآخر المتخلف ، وعقد التمحور حول الذات والإعجاب بها، وعقدة النرجسية التاريخية والسياسية والثقافية ، وعقد التراكمات الوثنية والعنصرية ، وعقد ثقافة الكراهية والاستئصال والاحتقار الأفقية والعمودية ، المحشوة في أسفار التوراة ، وتفاسير وشروح التلمود (المشنا والجمارا) عن (القوييم – الأميين كما في المصطلح القرآني) ، وعقد الخوف من لحظات التداعي والتراجع والانهيار أمام التفوق الإسلامي الذي زحزح الكيانات التاريخية الصليبية السائدة يومها : (الإمبراطورية الرومانية – الممالك الأوربية) ، وعقدة الخوف من تحول مركز الحضارة العالمي من محور موسكو لندن باريس واشنطن إلى محور طوكيو بكين كوالمبور ، ولاسيما بعد تمرد النمور السبعة على مروضها وصاحب نعمتها السابق الغرب المسيحي اليهودي ، وتحويل مسارها عن تعويق المارد الصيني ، والتنين الياباني ، إلى المشاركة والانخراط والدفع الخلاق في ينابيع وعروق النهضة الآسيوية القادمة.

وللأسف الشديد فإن هذه النظرية نجدها قد صاحبت الفكر الغربي الصليبي اليهودي منذ قرون عديدة إلى اليوم ، حيث تتوج اجتماعات مجلس الأمن

القومي الأمريكي الضيق بحضور شخصية دينية متميزة من الأصوليين الجدد من رعاة الكنيسة الأنجليكانية المتهودين بروح التوراة والتلمود ، ومن رعاة الكنيسة البروتستانتية المتصهينين ، والمهوسين بروح معركة (هرمجدون).

وتعود بداياتها الأولى منذ أن استطاعت جيوش الفتح الإسلامي تحرير شعوب وأمم العالم القديم من ربقة السيطرة الصليبية الرومانية عليه ، وانضمامها الطوعي لحظيرة الإسلام السمحة ، وهروبها من جحيم القهر والاستعباد الصليبي، مرورا بمآسي وويلات الحروب الصليبية المدمرة على العالم الإسلامي ، وما صاحبها من انهيار نظرية إعادة السيطرة على الشرق الإسلامي (1095-1291م / 498 - 690هـ) .

والمتتبع المحلل لأصحاب هذه النظرية يجدهم بأن ظلوا يتململون طيلة الحقب التاريخية السابقة ، يحاولون استغلال اللحظة تلو الأخرى ، متأثرين حينها بسعار طروحاتهم النظرية العنصرية الجامحة ، حقبة من بعد حقبة ، وزمنا من بعد زمن ، في نسق وتيرة تفاعل مرضي متأجج ، حتى تسنت لهم لحظة الفرصة المناسبة ، ولكن بعد أن استفحلت فيهم آثار هذه النظرية المرضية أثناء الموجة الاستعمارية الكبرى التي تلت سقوط إمارة غرناطة كآخر حصن عربي وإسلامي في الأندلس (897هـ - 1492م) ، وما استتبعها من جرائم مشينة ، ومذابح وحشية ، ومتابعات قهرية بطاشة ، من قساوسة ورهبان وبطارقة محاكم التفتيش الكنسية القهرية ، التي توسعت ارتداداتها وتفاعلاتها القمعية بعد موجات الغزو الاستعماري المحمومة ، تحت مظلة الكشوفات الجغرافية الكبرى للعالم القديم والجديد ، ولاسيما بعد اقتسام العالم بين قواه الاستعمارية الناهضة يومها (1492-1699م إسبانيا – البرتغال) ، وشره المستعمرين على نهب ثروات البلاد المكتشفة ، ثم تحولهم لتجارة الرقيق الأسود بهدف استعمار الأمريكيتين ، وكوة (غوري) في السنغال مازالت شاهدة على تلك الخطيئة الإجرامية الباكية في حق سكان إفريقيا السود طيلة ثلاثة قرون آثمة (1500-1800م) ، ثم تناسخ القوى الاستعمارية ، منذ القرن السابع عشر إلى منتصف القرن العشرين (بريطانيا – فرنسا – هولندا –

ألمانيا – بلجيكا – إيطاليا) ، حتى وراثة الولايات المتحدة الأمريكية للواء السيطرة الغربي على العالم ، طيلة منتصف القرن الماضي ، حتى القضاء المبرم على المعسكر الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفياتي ، وانهيار جدار برلين في ديسمبر 1989م ، وتحويل وجهة الحرب الحضارية باتجاه العالم العربي والإسلامي بعد أحداث 2001/09/11م، وتحت غطاء ما يسمى بمحاربة الإرهاب .

وظل أصحاب هذه النظرية طيلة هذه الحقب التاريخية يؤججون جذوة الصراع مع العالم الإسلامي ، تحت شعارات وقيادات متباينة الوجوه ، ولكنها متحدة في الأسس والأهداف. لتجدِ في كل حقبة من حقبها من يغذيها ويضرم لهيبها ، ويؤجج أحقادها ، في ظل القيادات السياسية والدينية الصليبية واليهودية الحاقدة على الإسلام والمسلمين . حتى ألفت مع نهايات القرن الماضي من يعطيها الأبعاد الفلسفية والفكرية ، ويؤسس لها مكتبة خاصة في بنوك المعلومات العالمية ، بأقلام السياسيين أمثال وزير الخارجية الأمريكي الأسبق (هنري كيسنجر 1972–1977م) ، والخبراء الاستراتيجيين في مراكز صناعة القرار ، ودوائر تحريك القوى في مختلف البقاع الساخنة من العالم ، ولتنتعش أخيرا في ظل كتابات الياباني الأمريكي (فرانسيس فوكوياما ونهاية التاريخ والأنموذج الغربي) ، وكتابات اليهودي البريطاني (صامويل هنتجتون وصدام الحضارات) ، واليهودي الحاقد أب القنبلة النووية الإسرائيلية ، المختبىء تحت عباءة السلام ذباح قانا الأول 1996م رئيس الوزراء الإسرائيلي (شمعون بيرز وكتابه الشرق الأوسط الجديد) ، وسائر الكتاب والمفكرين الأصوليين البروتستانت الجدد من صقور السياسة الأمريكية والبريطانية ذوي الأصول اليهودية .

إذ يقول مصدّر هذه النظرية صموئيل بي هانتيغتون في مقاله الشهير " الإسلام والغرب – آفاق الصدام " عن صدام الحضارات : ((.. ويقوم افتراضي على أن المصدر الأساسي للصراع في هذا العالم الجديد لن يكون إيديولوجيا أو اقتصاديا في الأساس ، فالتباينات بين الجنس البشري والمصدر المحوري للصراع ستكون ثقافية .. وستظل الدول القومية أكثر الوحدات الفاعلة قوة في الشؤون

الدولية ، غير أن الصراعات الأساسية في السياسة الدولية ستقع بين دول وجماعات صاحبة حضارات مختلفة . وسيهيمن صراع الحضارات على السياسة الدولية ، وستكون الفوارق الفاصلة بين الحضارات بمثابة خطوط القتال في المستقبل . وسيشكل الصراع بين الحضارات آخر مراحل تطور الصراع في العالم المعاصر ..)) . (2)

وقد وجد هنتجتون وفوكوياما وبرنار لويس ضالتهم في صقور الحزب الجمهوري الأمريكي المتعطش للسلطة والدماء والسيطرة على العالم الإسلامي والاستحواذ على أموال ونفوذ مناطق البترودولار ، والاستعداد لمعركة (هرمجدون) التوراتية الفاصلة مع العالم الإسلامي، واستطاعا بأكاذيبهما وعقدهما المرضية اللذين ملأ بهما كتابيهما من أن يلهبا حماس الساسة الأمريكان لإشعال فتيل الحرب الحضارية العالمية ، وخلق بؤر توتر جديدة في العالم الإسلامي ، بعد ذريعة أحداث 2001/09/11م ، التي مازالت لم تعرف حقيقتها بعد، وتطويق العالم الإسلامي بقوات حلف النيتو في أفغانستان وباكستان ودول أواسط آسيا الإسلامية المنفصلة عن الاتحاد السوفياتي السابق، وفي العراق ولبنان وفلسطين بؤرة الصراع العربي الإسلامي اليهودي الصليبي(3).

وقد عبر عن رؤيته في تزايد حدة ووتيرة الصدام بين الحضارات فقال : ((.. ستتزايد أهمية الهوة الحضارية في المستقبل ، وسوف يتشكل العالم إلى حد كبير نتيجة التفاعل بين سبع أو ثماني حضارات كبرى ، وتشمل هذه الحضارات الحضارة الغربية والكونفوشية واليابانية والإسلامية والهندوسية والأرثوذكسية السلافية والأمريكية اللاتينية ، ويحتمل أن تنضم إليها الحضارة الإفريقية ..)) . (4)

وقد وجدت هذه النظرية لها آذانا صاغية في العالمين العربي والإسلامي ولاسيما من طابور المنتسبين لتيار الحداثة وما بعد الحداثة ، ممن لا يختلفون في طروحاتهم الاستئصالية عن أسيادهم في الغرب ، بل ربما غالوا في طروحاتهم تلك ، فكانوا أكثر حقدا وسوداوية على أهلهم وذويهم ، بحجة محاربة التخلف ، ومقاومة الفكر الرجعي ، وإرساء الفكر التقدمي والحداثي . من أنصار العقلانية ،

والعلمانية ، والإلحادية ، والاشتراكية الشيوعية ، وفلسفات التشرذم والعبث واللامعقول ، والتفكيك والتشكيك والتحلل والتحرر، والحداثة ، وما بعد الحداثة .. ممن سعى ويسعى بمختلف الوسائل والأساليب ، وتحت مختلف الظروف والمناسبات ، وتحت عباءة وشعار الرقي والحرية التقدم وحرية المرأة وحقوق الإنسان .. إلى الترويج والدعاية المجانية والمأجورة لمشاريع الاستكبار ، بهدف تبيئها وتوطينها في العالمين العربي والإسلامي .

والحقيقة التي يجب ألا نخادع بها أنفسنا – كعرب ومسلمين - أبدا أن أصحاب هذه النظرية لا يمكن التجسير معهم ، ولا يمكن التهدئة من غلواء حقدهم وعنصريتهم ، فهم دمويون حتى في رياضاتهم وتساليهم وألعابهم وبرامجهم السينمائية والإعلامية والتلفزية والثقافية .. (5) كما أنه لا يمكننا التقليل من شرهم القادم على العالمين العربي والإسلامي خاصة وعلى العالم عامة ، في ظل انعدام توازن القوى ، وما يجعلنا نقف هذا الموقف التاريخي والرسالي الاعتبارات العديدة والمتنوعة التي نمتلكها بين أيدينا ، فمنها ما هو ديني ، ومنها ما هو واقعي ، ومنها ما هو علمي .

ولنؤسس موقفنا ورؤيتنا الحقيقية من أصحاب هذه النظرية بالاستناد والاعتبار بالمرجع الديني الكريم ، فقد بسط الله تعالى في نصف آيات القرآن الكريم قوانين مضبوطة ، وخلاصات سننية قطعية ، وحكما مطلقة وصادقة وواضحة عن أصحاب هذه النظرية ، مبينا كنه وأسس واعتقادات وممارسات وأهداف ومواقف أصحابها ، من : يهود ، ونصارى ، ومنافقين ، ومستكبرين ، ومعاندين ، وملحدين ، ودهريين ، وجبابرة ، وطغاة ، من شرائح مختلفة منهم : الأحبار ، والرهبان ، والربانيون ، والقادة ، والملوك ، والخاصة ، والعامة ، من الأقوام البائدة كـ : قوم نوح وعاد وثمود وتبع وأصحاب الأيكة والرس ولوط وفرعون .. ممن أدار ظهره لعهد أبينا آدم **عليه الصلاة والسلام** مع ربه من جهة ، وسن سنن الجاهلية العمياء في الأرض من جهة ثانية ، وعادى الأنبياء والمرسلين وآذاهم وقتلهم وشوه صورتهم وتاريخهم قرونا طويلة من جهة أخرى ، حتى

برأهم القرآن الكريم بعد قرون عديدة ، كما حصل لسيدنا داود وسليمان **عليهما الصلاة والسلام** على سبيل المثال .

وعلى هذا الأساس فنحن نمتلك كمسلمين خلاصات مقدسة ودقيقة في حقيقة وكنه وعمق أصحاب هذه النظرية ، ولكننا ذهلنا عنها ، ولم نفقهها حق فقهها ، وتنكبنا طريقها ، فابتغينا العزة في غير منهج الله ، ففشلنا وذهبت رياحنا ، وصرنا – للأسف - لعبة ودمية طيعة ، وورقة رابحة في يد أصحاب هذه النظرية ، يفعلون بها ما يشاءون في حسابات السياسة العالمية .

ويجيء الاعتبار الواقعي ليؤكد لنا عبر صفحات التاريخ ، وحقائق الحياة والعلاقات الإنسانية السائدة في العالم ، ما يبين لنا بوضوح صدق الخلاصات القرآنية في أصحاب هذه النظرية ، الذين لم نر منهم غير : القهر والاستضعاف والقمع والاستذلال ، طيلة قرون ضعفنا وتخلفنا ، ويكفي اختصارا انتقاء عبارة حضارية راقية لأصحاب هذه النظرية على لسان ساسة أكبر دولة تتبردع برداء الديمقراطية ونشرها في العالم يكثرون من استعمالها ببرودة وحقد أثناء حواراتهم وإملاء شروطهم على قادة وزعماء العالم الإسلامي ، ما يبين حقيقة نوايا وأهداف أصحاب هذه النظرية ، التي لا تدع لنا مجالا هامشيا للتفكير الحسن ، وهي قولهم : [إما أن تنصاعوا لشروطنا مباشرة، وتستجيبوا لإملآءاتنا بدقة ، وإلاّ فانتظروا العودة السريعة إلى العصر الحجري] . طبعا ، وسيتم ذلك عبر وسائل التدمير الفتاكة ، التي صنعوها خصيصا لهؤلاء القوييم . (6)

كما يجيء الاعتبار العلمي التجربي ليؤكد صدق الاعتبارين السابقين ، فمن خلال السياسة الغربية المتبعة تجاه العالمين العربي والإسلامي فيما يخص قضاياهم المصيرية نتبين كل شيء عن أصحاب هذه النظرية . حتى أن حقائق التاريخ علمتنا كيف استطاعت الشعوب العربية والإسلامية انتزاع استقلالها السياسي من قبضة أصحاب هذه النظرية منذ بداية منتصف القرن الماضي .

وأمام هذه الحالة المرضية المأسوية التي رسمتها حقائق الواقع والتاريخ عن أصحاب هذه النظرية ، يفترض فينا كقيادات وطلائع ونخب مثقفة أن نتوزع

الأدوار بيننا ، كل حسب موقعه وتكوينه وثقافته ولإمكاناته ومواهبه ، فيمتهن بعضنا دور الطبيب المعالج حيال المريض والمرض الغربي من جهة ، ويمتهن بعضنا الآخر مهنة الإعلاميين المخلصين فنضطلع بمهنة التبشير والدعاية والإعلام الموضوعي الباسط للحقائق الصحيحة عن الذات العربية والإسلامية ، وتوضيحها في ذهن الآخر المريض من جهة ثانية ، دون أن ننسى أنه سبق لرسولنا الكريم محمد **صلى الله عليه وسلم** أن قام بمثل هذه العمليات الإعلامية والفكرية والأدبية والدعائية والتبشيرية .. من : مباهلة ومناظرة ومجادلة ومكاشفة ومواجهة ومطارحة ومذاكرة ومناصحة ومفاضلة وملاطفة .. والخطاب القرآني الكريم واضح بيّن في مثل هذه المواقف ، عن نصارى نجران ، وعن يهود وعبد الله بن سلام حبرهم وخيرهم وسيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم ، وعن مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن ، وعن تعالوا ندعو أبناءنا وأبناءكم وأنفسنا وأنفسكم ..

وأن يضطلع فريق آخر على الصعيد المحلي والذاتي للنفخ في ضمائر وقلوب الجماهير العربية والمسلمة المرهقة بران الغزو الإعلامي والثقافي التدميري الغربي ، وذلك عبر دفقات التحشيد المعنوي والتأثير العاطفي والوجداني لإحياء الضمائر والقلوب الميتة ، علّها تستيقظ من سباتها ، وتفيق من غفوتها ، وتدرك مناطات رسالتها من جهة ثالثة .

فيما تضطلع القيادات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمالية والحزبية والجمعية من قادة الرأي ورجال المال والأعمال الحقيقيين لوضع خطة اقتصادية شاملة وواقعية محكمة زمنيا وتمكنيا وإمكانيا وكيانيا ومكانيا للنهوض والتنمية الشاملة المادية والمعنوية والأدبية والبشرية على مختلف الأصعدة ، لبناء مجتمع قوي ومتماسك ، قادر على الردع والمقاومة من جهة ، وعلى كفاية نفسه بالضروري من متطلبات الحياة . عبر آلية تجميع الأطراف عند المركز حين استشعار الخطر الداهم ، بإقامة علاقات قوية ومتينة مع كل القوى الخيرة من المستضعفين من أمثالنا ، أو من الخيرين في معسكر أصحاب هذه النظرية ، أو من القوى الاقتصادية العالمية الصاعدة في جنوب شرقي آسيا ، بهدف رص جبهة

المقاومة وتمتينها وتمكينها من الصمود والتصدي ، كما صنعت كل من ماليزيا وباكستان وإيران وكوريا الشمالية . (7)

2 – نظرية حوار الحضارات :

وبمقابل نظرية صدام الحضارات تجيء نظرية حوار الحضارات ، ودون الدخول في التفاصيل المعرفية والحدية لمعنى الحوار من الناحيتين الاصطلاحية الفلسفية ، والواقعية العملية ، ومجالاته وميادينه وحقيقته ، وموقعه الحكمي في المنظومة التشريعية الإسلامية ، وحجم الآي الكريم الذي تناوله ، إذ بيّن لنا أهميته وحدوده وفضله ، وموقعه من السنة النبوية المطهرة ، التي قدمته في أفضل صوره وأشكاله ، نرى أن هذه النظرية تتقاسمها فئتان ، فئة الطابور الخامس المؤيد للطروحات الغربية في العالم العربي والإسلامي ، ممن يتبنون مشروع تخضيع وأكسدة العالمين العربي والإسلامي ضمن مشاريع الهيمنة الغربية كخيار فكري وفلسفي واعتقادي واستراتيجي لهم .

ويندرج معهم فصيل من المفكرين الانهزاميين ممن أخلدوا لثقافة الهزيمة والاندحار ، بعد سطوة الغطرسة الأمريكية واليهودية والأصولية المسيحية واليهودية على المعسكر اشتراكي سابقا ، وتحييد روسيا كقوة عالمية سابقة ، والهيمنة المطلقة على العالم المتخلف عموما ، والعالمين العربي والإسلامي خصوصا ، واستسلامهم المطلق ، دون تقديم أي محاولات للانفلات والانعتاق ، من الكتاب والمفكرين والباحثين الذين ملأت كتاباتهم المجلات والدوريات العربية والعالمية القومية والحداثية ، من أمثال وأنصار مفكري ومنظري ومشجعي مؤتمر القاهرة وبكين ودربن .. للبيئة والمرأة والسكان .

والفئة الثانية من المفكرين العرب والمسلمين ممن يحسنون الظن بالآخر ، وممن يحاولون التجسير مع قوى الخير الموجودة لدى الآخر المتغطرس ، على اعتبار أن القوى الخيرة في المعسكر الغربي واليهودي تدرك تمام الإدراك استحالة تخضيع الآخر مادام هناك خيط رفيع من دبيب المقاومة والممانعة يتحرك في عروق الأمة العربية والإسلامية ، وأن الغطرسة الغربية ستنهي نفسها باستنفاد قواها

في عقدين أو ثلاثة عقود من الصراع غير المحسوم النتائج ، على أقصى تقدير . ولذا تسعى لخلق بؤر تواصل حوار إيجابي مع أصحاب نظرية حوار الحضارات ، ضمانا لخط الرجعة لمعسكرهم في حالة استحالة تحقيق أهدافهم بالكيفيات التي يديرها صقور السياسة الصليبية اليهودية المتغطرسين بنشوة السيطرة والتفوق .

وقد حاول هؤلاء عقد العديد من المؤتمرات واللقاءات والندوات الفكرية والتشاورية ، بهدف اختبار نية الآخر ، ومعرفة مواقفه وتصوراته ورآه لما يجري على الساحة العالمية من مجريات اقتصادية واجتماعية وسياسية وفكرية ومالية وتربوية ودينية وإعلامية .

وطرح أصحاب هذا الاتجاه رآهم وتصوراتهم في تلك المؤتمرات ، وسمعوا من الآخر المغاير تصوراته ورآه ، ولكنهما كان يقفان على ضفتين متباعدتين ، بتباعد نظرتيهما وفلسفتيهما ومرجعيتهما ، ولم يتوصلا إلى شيء مهم يذكر ، عدا التأكيد على نيتهما في مواصلة الحوار والتشاور والأمل في التوصل لأرضية تفاهم مشترك .

وفي الوقت الذي يسير فيه أصحاب هذه النظرية قدما في عقد اللقاءات الدينية والثقافية والأدبية والعلمية والفنية .. يبرز صوت ناشز عن الصف فيعيد الأدبيات الحوارية إلى دائرة الصفر ، فبعد محاولات بابا الفاتيكان بولس يوحنا الثاني توسيع دائرة الحوار مع العالم الإسلامي في زياراته الأخيرة للمشرق الإسلامي ، تجيء حملة الإساءة للرسول صلى الله عليه وسلم ، كما تجيء تصريحات البابا (بنديكت السادس عشر) عن الإسلام والمسلمين ورسول الله **صلى الله عليه وسلم** ، وإذكاء روح بطرس الناسك ، وأقوال البابا أوربان الثاني ملهب حماس الحملة الصليبية الأولى 498هـ 1095م ، فضلا عن حملات التشويه والإساءة الدائمة عبر المنتجات والسلع والملبوسات ووسائل التعبئة والتغليف والدعاية ، فضلا عن حملات التنصير المسيحي الحثيثة في العالمين العربي والإسلامي ، والانتهاكات والتصريحات اللامسؤولة للساسة وللقادة الغربيين كتصريحات رئيس الولايات المتحدة الأمريكية عن الإسلام والمسلمين ،

وتصريحات الوزير السابق الإسباني (خوسيه ماريا أزنار) ، وتصريحات قادة العدو الصهيوني القولية وعبر حروبهم التدميرية المستمرة في فلسطين ولبنان .

وفي اعتقادي أن أصحاب هذه النظرية قد لا يصلون إلى شيء مهم ، يؤدي إلى تغيير رؤى وتصورات وأهداف أصحاب نظرية صراع الحضارات ، ولن يقودهم إلى التغيير الجذري في مواقفهم ، ولكن أصحاب نظرية الحوار لا غنى عنهم في العالمين العربي والإسلامي ، لتطمين المريض الغربي بعض الوقت ، ضمانا لتحقيق عملية الإقلاع الحضاري الشاملة ، كالتي دشنتها ماليزيا ، وهي آلية مهمة جدا في عصر الضعف العربي الإسلامي ، وهي ناجعة إذا جاءت كخطوة علاجية ووقائية ثانية وموازية في التعامل مع المريض الغربي، تمهيدا لإثبات الذات وتحقيق التوازن ، وخلق حالة من التقبل والتعايش ، ولربما حالة عدم السخط والتبرم من الآخر ، المعشعشة في ضمير وروح المريض الغربي ، الذي سيعترف لاحقا بمكانة وقدر الآخر ، فيعترف به ويحاوره ويحترمه احترام الند للند . ولن يجني أصحاب نظرية الحوار ثمارهم، إلاّ إذا وضعوا خطة شاملة محكمة سبق التنويه ببعض خطوطها الاستراتيجية.(8)

3 – نظرية تعارف الحضارات :

وبعد الانسداد الحاصل بين أصحاب النظريتين السابقتين ، ومحاولات أصحاب نظرية الحوار جر الطرف المقابل للاعتراف بحقه في التمايز والتفاضل بخصوصياته في ظل الحصار الثقافي والفكري والواقعي له ، وفي ظل السيطرة والحضور العولمي المتغطرس لأصحاب نظرية الصدام ، غير الآبهين بصرخات ونداءات العقلاء من أصحاب نظرية الحوار من كلا الضفتين ، يجيء طرح واقعي آخر ، وهو أكثر واقعية وقبولا ومنطقية وعقلانية من طرح أصحاب نظرية الحوار ، وهو طرح بعيد عن عواطف التفاؤل والأمل الذي سكن أصحاب نظرية الحوار عندما دشنوا الافتتاح الرسمي والواقعي لممارسة أرضيات نظريتهم في تلك اللقاءات المباشرة بينهم ، وهو طرح عقلاني بحت ، يبدأ من أرضية سننية ، ومن قانون رباني مخطوط في قوله تعالى:{ **ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض**

لفسدت الأرض } (البقرة : 252) ، وفي قوله تعالى : { **ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع ومساجد وصلوات يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز** } (الحج : 35 و36) ، وفي قوله تعالى : { **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن** } ، وفي قوله تعالى : { **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** }(النحل : 125) ... وفي غيرها من الآيات القرآنية الكريمة كقوله تعالى عن آلية التعارف بين الناس وواجبات المسلمين نحو هذه الفريضة : { **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** } (الحجرات : 13) . وفي عمل رسول الله **صلى الله عليه وسلم** الدعوي عندما حاول التواصل والتحاور والتجادل مع مختلف الشرائح والتوجهات الدينية في جزيرة العرب ، ثم خارج الجزيرة بعد أن أرسل رسله في العام السادس للهجرة إلى ملوك وأمراء الدول والممالك المجاورة بما فيها الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية ، كما بينت ذلك مصادر السيرة والسنة النبوية المطهرة .

يجيء هذا الطرح من منطلق أن كل طرف يجب أن يتعرف على الطرف الآخر ، وأن كل طرف يجب أن يقدم الصورة الصحيحة عنه للآخر ، وأن كل طرف يجب أن يفتح صفحات نظرياته وواقعه على الآخر بصدق وشفافية ، ليتسنى لكل طرف من معرفة الآخر على حقيقته ، وكما هو في الواقعين النظري والواقعي ، وليس كما يريد هو أن يقدمه من معارف للآخر ليريه الوجه الذي يريد ، ومن هنا صار على كلا الطرفين تقديم أنفسهما بأنفسهما لأنفسهما ، دونما مساحيق ولا زينة ، وهكذا وبزعم أصحاب هذه النظرية ، وبعد فترة من التعارف الكافية ، وفترة من التواصل والاحتكاك المباشر ، كما يحصل بين الخطيبين، يمكنهما من تحديد مواطن الالتقاء والتفاهم المشتركة ، وتحقيق التقارب فيها ، وتذليل عقبات الاختلاف بينهما ، وإرجاء إصدار الأحكام على بعض القضايا والمسائل ريثما تتوفر الأرضية المناسبة للبت فيها ، ونتركها في حكم المؤجلة أو المنظورة أو في

حكم الخصوصيات الواجب الاعتراف بها واحترامها عند الآخر ، والسعي لتبريرها بشتى المبررات ليتقبلها الآخر أو ليعترف بها ويقر بوجودها لدى الآخر ، دونما أن يبدي أو يخفي تجاهها أي عقدة تعكر صفو العلاقة بين المتعارفين .

ويطرح أصحاب هذه النظرية مبادىء نظريتهم عبر مختلف وسائل الإعلام والاتصال الحضارية المتاحة ، ويرون أن لب المشكلة الحضارية القائمة بين أصحاب النظريات يكمن في مستوى الجهل أو التجاهل المبيت من الآخر المتغطرس ، أو من غيره الذي يسير في الركاب . وبزعمهم فإن هذه الحالة المعرفية التي يؤسس عليها أصحاب النظريات الأخرى رؤاهم وتصوراتهم ومواقفهم ناتجة بالأساس من الجهل المعرفي بحقيقة الأمم والشعوب والحضارات الأخرى ، وهو ما جعلهم يعمقون حالة النفور والتباعد عن الآخر . وهم محقون في ما يذهبون إليه بعض الشيء ، إذ يلعب الجهل بالآخر دورا فعالا في خلق كثير وأنواع من الحالات غير السوية في شبكة العلاقة به ، ما يجعل الصلة بين الطرفين متأزمة دوما . كما أنهم يرون أنه من واجبهم تعريفه بما عندهم ، من باب وضع الأمور في نصابها وسلبه أي حجة يمكنه أن يتخفى من ورائها للاستمرار في غلوائه وغطرسته .

والحقيقة أن هذا العمل المعرفي والاتصالي الحضاري مهم وكاف ، من ناحية رفع الحرج ، ودفع العتب ، وأدعى إلى إقامة الحجة في وجه الآخر المتغطرس . وهو محاولة للتجسير المعرفي والموضوعي الرصين مع القوى الخيرة والفاعلة منه ، وهي محاولة أخرى للتوجه الدعوي والدعائي معا إلى الفئات المضللة والمغررة والخالية الذهن عن ثقافة وحضارة وكنه وحقيقة الآخر ، الذي ظل يعاني من حالات الفراغ والتشويه والإساءة التي يتمدد فيها سعار أصحاب نظرية الصدام العدوانية ، فيعمرون تصورات ومخيال الآخرين بما يريدونه من تصورات تخدم مصالحهم ونظريتهم ، وهذا أقصى ما يمكن أن يقدمه الضعيف أمام سيطرة واجتياح القوي المتغطرس .

ولكنه – في رأينا المتواضع – عمل وجهد مستفرغ في أوعية مليئة حتى التخمة ، وغير قادرة على الاستيعاب أو تقبل شيء إضافي آخر غير الذي مُلئت به طيلة سنين الحقد والاستكبار والعنصرية ، حتى صار من بدهيات الفكر والحياة الصليبية اليهودية . إذ أن الفكر الصليبي اليهودي لم يعد يتحمل سماع أي صوت من منظومات الآخر الفكرية والفلسفية والدينية ، لعدة اعتبارات مرضية سبق التنويه بها .

وأصحاب هذه النظرية سيشكلون للأمة العربية والإسلامية معابر تعارف مع الآخر المغاير . ولهم في ذلك كتابات رصينة تدل على هدوء وموضوعية ورصانة هذا الطرح ، وتندرج كلها في مجرى نظرية تعارف الحضارات . (9)

*** موانع الحوار مع الآخر :**

إن الناظر في واقع الخارطة الحضارية للأمم وتوزيعها الجغرافي يتبين جملة من الحقائق ذات الصلة الوطيدة بكثير من القضايا والمسائل ، كما يتبين صلتها الوطيدة بموضوع اتصال الحضارات ، حيث تُفضي القراءة المعمقة إلى جملة من الخلاصات حول مصير ومستقبل التدافع الحضاري بين الحضارات ، لعل القراءة التاريخية العمودية والأفقية الموضوعية تبين لها من هي الحضارات التي يمكننا التواصل معها ، والحضارات التي تندفع تلقائيا للتصادم معنا ، ولعل الحضارة الغربية اليهودية المسيحية هي من بين أخص الحضارات العالمية المعنية بصدامنا ، نظرا للعوامل التالية :

1 – الإرث التاريخي .

2 – المقولات الدينية المتعصبة .

3 – العقد المرضية .

ولتأكيد فرضيتنا هذه نجول في آفاق الفكر المسيحي اليهودي الديني والوضعي المسيطر على الساحة الاتصالية والإعلامية والثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية علّنا نجد العكس ، ونطمئن لخطإ هذه الفرضية ، ونمد جسور التواصل والحوار معهم .

*** الإرث التاريخي :**

ينطلق الفكر الديني الأصولي المسيحي من عقيدة حتمية رجعة السيد المسيح إلى الأرض قبل بداية الألفية الثالثة للميلاد ، ليملأ الدنيا عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما وإرهابا بيد القوى الشريرة ، وليطهر الأرض من رجس الإرهاب والأشرار ، وليبني مملكة الله في الأرض تدوم ألف عام آخر يتسم بالسعادة ، حيث سيحكم العالم من مدينة القدس التي سيحررها ويطهرها من الأشرار . ويعتقد المسيحيون الأصوليون أنه لابد من حصول جملة من المقدمات تنبىء بهذه البشرى ، وهي :

1 – إقامة دولة إسرائيل على أرض الشرق من النيل إلى الفرات ومن جبال طوروس إلى اليمن ، وعودة سائر اليهود واستقرارهم فيها .

2 – إقامة الهيكل اليهودي بعد تدمير المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة .

3 – وقوع معركة " هرمجدون " الفاصلة بين قوى الخير والشر ، تنتصر فيها قوى الخير المسيحية واليهودية على أعدائها . (10)

وقد سعت الأصولية المسيحية اليهودية منذ انبعاثها في القرن السادس عشر الميلادي إلى العمل والتمهيد والتعجيل بقرب حصول هذه المبشرات الدينية ولاسيما من قبل القوى العظمى فرنسا في عهد نابليون بونابرت ، ومنذ مطالع القرن التاسع عشر في بريطانيا في عهد لويد جورج ووزير مستعمراته اللورد جيمس آرثر بلفور وتشمبرلين وونستون تشرشل ، وفي أمريكا في عهد روزفلت وترومان وإيزنهاور وليدون جنسون وريتشارد نيكسون وجيرالد فورد وجيمي كارتر ورونالد ريغان وجورج بوش الأب وبيل كلينتون وجورج بوش الابن ..، الذي كان يردد مقولة الرئيس الأمريكي السابق رونالد ريغان أثناء حملته الانتخابية بأنه جاء ليقود معركة " هرمجدون " (11) بنجاح ، ويقاوم قوى الشر ، وسعوا بكل ما يملكون من قوة إلى إصدار وعد بلفور 1917/11/02م وإنشاء وطن قومي لليهود يجتمع فيه يهود الشتات ، تمهيدا لبناء هيكل سليمان والاستعداد لمعركة " هر مجدون " الفاصلة مع قوى الشر ، ولذلك تسعى القوى الأصولية المسيحية

اليهودية إلى استبعاد وضع القدس من أية مفاوضات تسوية قادمة مع الفلسطينيين نظرا لتمسكها بالمقولات الدينية المتعصبة . (12)

وبدا ذلك في الدعم اللامحدود لدولة إسرائيل ، وذلك بربط مصير أمريكا بإسرائيل ، فهذا " جيري فالويل " زعيم منظمة الأغلبية الأخلاقية ، والذي يبلغ عدد أتباعها الخمسين مليونا يقول : ((.. لا أعتقد أن في وسع أمريكا أن تدير ظهرها لشعب إسرائيل وتبقى في عالم الوجود ، والرب يتعامل مع الشعوب بقدر ما تتعامل هذه الشعوب مع الشعب اليهودي بحب وإخلاص ..)) . (13)

وهذا أيضا " مايك إيفانس " قسيس يذيع برنامجا تلفزيونيا ولمدة ساعة كاملة بعنوان " إسرائيل مفتاح أمريكا للبقاء " يدعي فيه بأن تخلي أمريكا عن الضفة الغربية وغيرها من الأراضي المحتلة بعد حرب 1967م سوف يجر إلى دمار إسرائيل ومن بعدها الولايات المتحدة الأمريكية . (14)

فيما تركز هيئاتهم ومؤسساتهم وقنواتهم ووسائلهم الدعائية والإعلامية على إظهار قيام إسرائيل وبقائها علامة مهمة وإشارة واضحة لعودة المسيح الذي سيدير العالم من القدس .

وقد تنفست الأصولية المسيحية الصعداء بقيام دولة إسرائيل 15/ماي/1948م ، وهزيمة دول المواجهة العربية في حرب 05/حزيران/1967م ، واستعادة لمبادرة بعد حرب الـ 10 من رمضان 1339هـ الـ 06 من اكتوبر 1973م ، واحتلال بيروت سنة 1982م بعد حرب جنوب لبنان واجتياح الجنوب سنة 1978م ، وضرب مفاعل الأوزوريك ببغداد في جويلية 1981م .

وقد سمحت الثقافة الأصولية التي تزرعها الكنائس المخلصة للكتاب المقدس لنفسها أن تكون محاربة وغير متسامحة ، بشكل أكبر خلال العشرين عاما الماضية . إن كلمة المؤمنين بالمزامير ، أن الرب " سوف يسحق رؤوس أعدائه " قد توقفت بكل تأكيد عن كونها مقولة عفا عليها الزمان .. وانطلقت الحرب المقدسة ، ضد الإرهاب والإرهابيين والإلحاد والإلحاديين ، حيث جاء في الكتاب

المقدس في سفر اللاويين الفصل الخامس والعشرين الفقرة الرابعة والأربعين : " وليكن عبيدكم وإماؤكم من الشعوب التي حولكم منها تقتنون عبيدا وإماء . (15)

وفي هذا الصدد يقول جراهام فرنكلين (16) وهو يعظ الكهان : ((.. إن الإسلام كله دين شرير على نحو استثنائي يستحق التوبيخ ، وليس نحن من قمنا بمهاجمة الإسلام ، ولكن الإسلام هو من قام بمهاجمتنا ..)) . (17)

وهذا ما يفسر التأثير السياسي الأعظم للإيقانجليكية على السياسة الأمريكية خلال الخمسين عاما الماضية هو في دورها الخاص بتوسيع القاعدة الشعبية الخاصة بالدعم شبه الكامل وغير القابل للتحول لدولة إسرائيل . حيث تركز تعاليم عقيدة " المرحلية " ذات الانتشار الواسع داخل الحركة منذ ثلاثينيات القرن العشرين على التنبؤ بأن دولة إسرائيل سوف تلعب دورا جوهريا في خطة الله الخاصة بالآخرة ، حتى إن معظم هؤلاء الإيقانجليكيين الجدد الذين هجروا تفاصيل " المرحلية " لا يزالون يحملون إيمانا لا يتزعزع بدور إسرائيل الذي قدره الله لها ، ويحظى هذا الاعتقاد بشعبية جارفة في أمريكا . (18)

وهكذا يشكل الإرث التاريخي والديني الثقيل حاجزا بين الشرق والغرب ، ومانعا قويا من التقارب والحوار ، بل سيصبح دافعا قويا للصدام الحضاري على حد قول هنتجتون بأنه : ((.. ستتزايد أهمية الهوة الحضارية في المستقبل وسوف يتشكل العالم إلى حد كبير نتيجة التفاعل بين سبع أو ثماني حضارات كبرى. وتشمل هذه الحضارات ، الحضارة الغربية والمونفوشية واليابانية والإسلامية والهندوسية والأرثوذكسية السلافية والأمريكية اللاتينية ويحتمل أن تنضم إليها الحضارة الإفريقية . وستقع أهم الصراعات في المستقبل على امتداد خطوط الهوة الثقافية التي تفصل تلك الحضارات عن بعضها البعض .)) . (19)

وهو يرى أن الصدام حاصل لا محالة لعدة أمور أساسية هي :

1 – أن التباين بين الحضارات ليست حقيقة فحسب بل هو أساسي ، لأن الحضارات تختلف عن بعضها البعض بفعل التاريخ واللغة والثقافة والتقاليد والأكثر أهمية عامل الدين ، فأصحاب الحضارات المختلفة يعتنقون معتقدات

مختلفة عن العلاقة بين الله والإنسان وبين الفرد والجماعة وبين المواطنين والدولة وبين الآباء والأبناء وبين الزوج والزوجة ، وذلك بالإضافة إلى رؤى مختلفة عن الأهمية النسبية للحقوق والمسؤوليات والحرية والسلطة والمساواة والوصاية الأبوية في مختلف المجالات .

2 – أن هذه الاختلافات نتاج عدة قرون ، ولن تختفي تلك التباينات في القريب ، فهي أكثر أصولية من الاختلافات بين الإيديولوجيات والأنظمة السياسية ، وستعرف مناطق التماس الثقافي صراعات حضارية طويلة الأمد وشديدة العنف بين الحضارات المتباينة .

3 – سرعة التواصل والانتقال بين مختلف مناطق التماس الحضاري ، حيث تعرف أوربا هجرة الملايين من الأفارقة السود نحوها ما يتسبب في تهديد الهوية الشقراء والبيضاء الأوربية ، الأمر الذي أثار عداء الكثير من الفئات فيها ضد هجرتهم ، وبالتالي تأجيج الصدام مع حضارتهم الأم .

4 – فشل خطط التحديث الاقتصادي والتغيير الاجتماعي في مختلف أنحاء العالم المتخلف وبالتالي تشجيع الصدام مع ثقافة وحضارة الرفاهية الغربية .

5 – نظرة أصحاب الحضارات الضعيفة إلى خطط التنمية الاقتصادية الغربية على أنها عامل مسخ وتشويه لأصوليتهم ودينهم ، وبالتالي فهم يضعون الدين بمقابل فجوة الغزو الثقافي والحضاري لهم ، ومن هنا يحصل التمانع ، ويقوى التدافع والصراع .

6 – إن خطط التنمية والتغيير الاجتماعي والاقتصادي المزمع استنباتها لدى الآخر الضعيف ستجابه من قبل القوى الحية في الأمة ولاسيما من النخب الجامعية الناشئة والمقبلة على سوق الشغل ، وعادة ما تكون من الفئات الأكثر تدينا والتي ترى في تلك المشاريع عامل تهديد للأمة ، وليس عامل تنمية ، وبالتالي سيتأجج الصراع ، وتضيع فرص التلاقي والحوار .

7 – ازدهار عامل الأصولية في كل الحضارات وعودة روح الأسلمة للأمة الإسلامية بديلا عن كل الإيديولوجيات الحديثة .

8 – ثبات الخاصيات الثقافية وصمودها أمام عوامل التغيير، حيث تبقى الخصوصيات الثقافية لدى الأمم ، ولا تتغير ما يجعلها عاملا مشجعا في صدام الحضارات ، وموانع الحوار .

9 – نمو وريادة الأقلية المرفهة على حساب الأكثرية الفقيرة ، حيث يشكل الفقر والتخلف عوامل حقد وكراهية وصدام ، ما يعيق التقارب والحوار ، ويشجع الصدام .

10- فشل الحضارات المسيطرة على صناعة حضارة مزيجة أو بديلة أو مهادنة لدى الآخر الضعيف ، وتمسك الآخر الضعيف بثقافته حد الاستماتة ، ما يمنع حظوظ التلاقي ويقوي حظوظ التلاغي . (20)

*** المقولات الدينية المتعصبة :**

تشكل المقولات الدينية عامل تثبيط حضاري مستمر ، ولاسيما المقولات التي حُشي بها التوراة في فترات التدوين اللاحقة لوفاة نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام بثمانمائة عام على وجه التقريب ، حيث امتلأت بالمقولات العنصرية غير القابلة للتغيير ، أو المناقشة ، والتي تؤخذ من قبل أصحابها على أنها حقائق يجب أن تتحقق ، ونبوآت يجب أن تُنفذ ، وهي بذلك تقف على العكس والنقيض من تعاليم الدين الإسلامي حول الآخر المخالف في الدين والعقيدة ، حيث الحرية والاحترام والصيانة والحماية موفورة له في ظل تعاليم الإسلام التي يكفلها له الكيان الإسلامي كفالة تامة ، كما كان الأمر جاريا عهود الحضارة الإسلامية في الشرق الإسلامي: أثناء العهد الأموي والعباسي والأيوبي والمملوكي والعثماني،والغرب الإسلامي:أثناء العهد الأندلسي الأموي والمرابطي والموحدي والمريني والحفصي والزياني .. وندع هذه التعاليم الدينية تتحدث عن نفسها بنفسها ، تصف منطلقاتها وأسسها وأركانها وتعاليمها وقيمها التي تدعو المؤمنين بها لينافحوا عنها ، دون التعليق عليها عبر هذه النماذج التوراتية :

1 – أنموذج من سفر التكوين :

يستقي الأصوليون الجدد من اليهود وأتباعهم المسيحيين الموقف الديني من أرض فلسطين بما يحدده لهم سفر التكوين في الإصحاح 15 ، وفي الفقرات 18 .. 21 ، بأنها أرضهم بالنص الديني غير القابل للنقاش ، ولو أدى ذلك إلى تسليط أقسى أنواع العقوبات والويلات والتشريد على الأمم الأخرى . فبزعمهم بعد أن أعطى الله ميثاقا لإبرام قائلا: ((.. سأعطي نسلك هذه الأرض من وادي العريش إلى النهر الكبير، نهر الفرات أرض الفينيقيين والقنزيين والقدمونيين والحثيين والفرزين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين ..)) (21) ، صار كل شيء بالنسبة إليهم حقا أبديا غير قابل للتفاوض.

على العكس فقد جعل الله التمكين للمسلمين بمدى ثباتهم على القيم الدينية ، وهزيمتهم وزوالهم وذهاب ريحهم ببعدهم عن القيم الدينية ، إذ قال : { **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** } ، وقال : { **الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة .. ولله عاقبة الأمور** } ، وقال : { **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ..** } ، كما قال تعالى : { **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ..**} . فالفرق بين الدينين شاسع ، ولا يمكن أن يصدر عن الله موقف يتناقض مع غيره بخصوص التجمعات البشرية ، حيث يتناقض الموقف القرآني الكريم مع تعالم التوراة ، ولو كان من عند الله لما تناقض الموقفان . فأحدهما هو الصحيح ، وبعرضهما على منطق التجمعات الإنسانية وما توصلت إليه العقول البشرية الناضجة من حكمة وقوانين الاجتماع البشري ، لوصلنا إلى منطقية الطرح القرآني على منطقية الطرح التوراتي ، الذي سجله شرّاح التوراة وأضافوه في سنين السبي تعزيزا لمواقف تماسك الجماعة اليهودية واستمرارها .

2 – أنموذج من سفر الخروج :

كما يتحدد الموقف الديني للأصوليين اليهود والمسيحيين الإنجليكانيين وغيرهم من الطوائف المتعصبة من العبيد والعبودية من خلال نصوص سفر الخروج في الإصحاح 21 : الفقرة 1 .. 11 الذي يقول : ((.. إن اشتريت عبدا

عبرانيا فليخدمك ست سنوات ، وفي السنة السابعة تطلقه حرا مجانا ، وإذا اشتريته وهو أعزب يُطلق وحده . وإن اشتريته وهو بعل امرأة ، تُطلق زوجته معه ، وإن وهبه مولاه زوجة وأنجبت له بنين وبنات ، فإن زوجته وأولادها يكونون ملكا لسيده ، وهو يطلق وحده حرا . لكن إن قال العبد : " أحب مولاي وزوجتي وأولادي ولا أريد أن أخرج حرا " يأخذه سيده إلى قضاة المدينة ، ثم يقيمه لصق الباب أو قائمته ، ويثقب إذنه بمخرز ، فيصبح خادما له مدى الحياة . ولكن إذا باع رجل ابنته كأمة ، فإنها لا تطلق حرة كما يطلق العبد ، فإذا لم ترق لمولاها الذي خطبها لنفسه ، يسمح بافتدائها ، ولا يحق له أن يبيعها لقوم أجانب ، لأنه غدر بها فلم يتزوجها ، وإن خطبها لابنه فإنه يعاملها كابنة له . أما إذا أعجبته وتزوجها ، ثم عاد فتزوج من أخرى ، فإنه لا يُنقص شيئا من طعامها وكسوتها ومعاشرتها ، فإذا قصّر في واحدة من هذه الأشياء الثلاثة ، عليه أن يطلقها حرة مجانا ..)) (22) . على العكس من الإسلام الذي وضع ضوابط شرعية أصولية وفروعية للحد والتضييق من امتداداتها وتأثيراتها ، تمهيدا لخنقها ووئدها ، وقد كتب الأستاذ عبد الودود شلبي دراسة قيمة حول الضوابط الشرعية الإسلامية التي تحد من استفحال هذه الظاهرة ، بل تضيق سبلها لتنهي وجدها ، بحيث جعل الإسلام على راس كفارات الذنوب والآثام والمعاصي والخروقات الدينية تحرير رقبة . (23)

3 – أنموذج من سفر العدد :

أما الموقف الديني من الحرب والمحاربين والأسرى والأسيرات والأطفال والعبيد والعبودية يحدده سفر العدد في الإصحاح 31 : الفقرة 13 .. 24 فيقول : ((فخرج موسى وألعازار وكل قادة إسرائيل لاستقبالهم إلى خارج المخيم ، فأبدى موسى سخطه على قادة الجيش من رؤساء الألوف ورؤساء المئات القادمين من الحرب وقال لهم : " لماذا استحييتم النساء ؟ إنهن باتباعهن نصيحة بلعام أغوين بني إسرائيل لعبادة فغور ، وكن سبب خيانة للرب ، فتفشى الوباء في جماعة الرب ، فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال ، واقتلوا كل امرأة ضاجعت رجلا ، ولكن استحيوا لكم كل عذراء لم تضاجع رجلا . وأما أنتم فامكثوا خارج المخيم

سبعة أيام ، وعلى كل من قتل نفسا ، ومن لمس قتيلا أن يتطهر في اليوم الثالث ، وفي اليوم السابع افعلوا هذا أنتم وسباياكم ، وكذلك طهورا كل ثوب ، وكل متاع جلدي ، وكل ما هو مصنوع من شعر المعز وكل آنية من خشب .. فتكونوا طاهرين ، وبعد ذلك تدخلون المخيم "..)) . (24)

4 – أنموذج من سفر التثنية :

كما يتبين الموقف الديني من مخالطة ومعايشة الأمم الأخرى في سفر التثنية الإصحاح 7 الفقرة 1 .. 5 ، حيث يقول : ((.. ومتى أدخلكم الرب إلهكم إلى الأرض التي أنتم ماضون إليها لترثوها ، وطرد من أمامكم سبع أمم ، أكثر وأعظم منكم ، وهم الحثيون والجرجاشيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والحويون واليبوسيون . وأسلمهم الرب إليكم وهزمتموهم، فإنكم تحرّمونهم . لا تقطعوا لهم عددا ، ولا ترفقوا بهم ، ولا تصاهروهم ، فلا تزوجوا بناتكم من أبنائهم ، ولا أبناءكم من بناتهم ، إذ يغوون أبناءكم عن عبادتي ليعبدوا آلهة أخرى ، فيحتدم غضب الرب عليكم ويهلككم سريعا ، ولكن هذا ما تفعلونه بهم : اهدموا مذابحهم ، وحطموا أصنامهم ، وقطعوا سواريهم ، وأحرقوا تماثيلهم ..)) . (25)

وهكذا – بزعمهم – ليميز الرب هؤلاء اليهود ويجعلهم الشعب المقدس مقابل الشعوب الأخرى التي هي في مصاف الحيوانات ، حيث يوضح هذه القيمة الدينية سفر التثنية في الإصحاح 7 الفقرة 6 .. 16 ، فيقول : ((.. لأنكم شعب مقدس للرب إلهكم ، فإياكم قد اختاركم الرب إلهكم من بين جميع شعوب الأرض لتكونوا شعبه الخاص ، ولم يفضلكم الرب ويتخيركم لأنكم أكثر عددا من سائر الشعوب ، فأنتم أقل الأمم عددا . بل من محبته ، وحفاظا على القسم الذي أقسم به لآبائكم ، أخرجكم بقوة فائقة ، وفداكم من نير عبودية فرعون ملك مصر . فاعلموا أن الرب إلهكم هو الله ، الإله الأمين الوفي بالعهد والإحسان لمحبيه وحافظي وصاياه إلى ألف جيل . فإن استمعتم إلى هذه الأحكام وأطعتموها وعملتم بها ، فإن الرب إلهكم يحافظ لكم على العهد والإحسان كما حلف لآبائكم . ويحبكم ويباركم ويكثركم ، ويبارك ثمرة أحشائكم وغلة أرضكم من

قمح وزيت ، ويزيد من إنتاج بقركم ونعاجكم على الأرض التي أقسم لآبائكم أن يهبها لكم ، وتمونون مباركين أكثر من جميع الشعوب ، فلا يوجد عقيم ولا عاقر فيكم ولا في بهائمكم . ويقيكم الرب من كل علة ، وكل أمراض مصر الخبيثة التي عانيتموها ، ولا يصيبكم بها ، بل يجعلها على مبغضيكم . وتستأصلون جميع الشعوب الذين يسلمهم الرب إليكم ، فلا تشفقوا عليهم ، ولا تعبدوا آلهتكم لأن ذلك شر لكم ..)) . (26)

ولضمان تفوقهم وانتصارهم على الشعوب الأخرى ، فقد سن لهم الرب شرائع حصار وفتح المدن البعيدة ، حيث يوضح ذلك سفر التثنية في الإصحاح 20 الفقرة 10 .. 15 ، فيقول : ((.. وحين تتقدمون لمحاربة مدينة فادعوها للصلح أولا ، فإن أجابتكم للصلح أولا واستسلمت لكم ، فكل الشعب الساكن فيها يصبح عبيدا لكم . وإن أبت الصلح وحاربتكم فحاصروها فإذا أسقطها الرب إلهكم في أيديكم ، فاقتلوا جميع ذكورها بحد السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم ، وكل ما في المدينة من أسلاب ، فاغنموها لأنفسكم، وتمتعوا بغنائم أعدائكم التي وهبها الرب إلهكم لكم ، هذا تفعلون بكل المدن النائية عنكم التي ليست من مدن الأمم القاطنة هنا ..)) . (27)

أما فلسطين والأرض المقدسة فلها شرائع خاصة ، حيث خصها الرب – بزعمهم – بشرائع حصار وفتح مدن أرض الميعاد فلسطين في سفر التثنية الإصحاح 20 الفقرة 16 .. 18 ، حيث يأمرهم – بزعمهم – فيقول : ((.. أما مدن الشعوب التي يهبها الرب إلهكم لكم ميراثا ، فلا تستبقوا فيها نسمة حية ، بل دمروها عن بكرة أبيها ، كمدن الحثيين والأموريين .. واليبوسيين كما أمركم الرب إلهكم ، لكي لا يعلموكم رجاستهم التي مارسوها في عبادة آلهتهم ، فتغووا وراءهم وتخطئوا إلى الرب إلهكم ..)) . (28)

وعن أحكام التعامل مع الغير يورد سفر التثنية في الإصحاح 23 الفقرة 15 .. 20 : ((.. لا تتقاضوا فوائد عما تقرضونه لإخوتكم من بني إسرائيل ، سواء كانت القروض فضة أو أطعمة أو أي شيء آخر . أما الأجنبي فأقرضوه بربا . إنما

إياكم إقراض أخيكم اليهزكي بفائدة ..)) (29) . ومن هذا النص ومن غيره أسقط اليهود حق الآخر في الحياة الكريمة واعتبروا أن الوصايا العشر وغيرها من الأحكام خاصة باليهود فقط .

وفي سفر يشوع – فتى موسى عليه الصلاة والسلام – وهو الذي خلفه على بني إسرائيل وسفر يشوع هو أول الأسفار التالية للتوراة يتكرر الأمر الإلهي بقتل كل من في المدينة من رجال ونساء وشيوخ وأطفال ، وحتى البهائم ، لا لشيء إلاّ لأنهم غير يهود . (30)

وعند الأصوليين من اليهود والمسيحيين ، وعند الإيقانجيليكيين المسيحيين الكتاب لمقدس هو كلمَة الله الصحيحة التي لا يطولها الخطأ ، وتؤخذ نصوصه حرفيا ، وموسى - عليه الصلاة والسلام – هو الذي كتبها بخط يده .

وهكذا تشكل المقولات الدينية التوراتية والإنجيلية المتعصبة ، وافتراءات - يسمونها نبوآت –- القساوسة والأحبار والرهبان عامل إقصاء وممانعة لتواصل الحوار مع الإسلام والمسلمين .

*** العقد المرضية :**

تُعد العقد المرضية المزمنة والمستفحلة المذخورة في الروح اليهودية المسيحية عاملا مهما من عوامل الصدام الحضاري الحاسم في كل عصر من العصور ، حيث لم يستطع الغرب أن يتخلى عن هذا المرض الخطير الذي استشرى في أعماقه حيال الإسلام والمسلمين، الأمر الذي أدى إلى استفحاله وتفاقمه حد العقد المرضية ، التي صارت تنظر إلى الآخر عموما – كحالهم مع المارد الآسيوي الناهض - وإلى العرب والمسلمين خصوصا نظرة مرضية مفعمة بالحقد والحسد والبغضاء والكراهية ، ولعل استعراض عقدة مرضية واحدة أو عقدتين بشكل عابر ما يكشف لنا استحالة التجسير مع فرد هذه الحضارة المريضة

فيما ينظر الغرب إلى التفاعل القائم اليوم بين الغرب والإسلام على أنه أكثر من صراع بين الحضارات ، حيث أن المواجهة بينهما ستبدأ وستنتهي من

العالم الإسلامي ، فمن حركة مد الإسلام في الغرب وانتهاء بالهند وبنغلادش وباكستان وماليزيا وجنوبي شرق آسيا سيبدأ الصراع من أجل نظام عالمي جديد. (31)

وسنعرض على عجالة بعض العقد المرضية المستفحلة والخطيرة التي تسكن نفسية الآخر ، وتتحكم في مساره الحياتي ، وبالأخص التكتل المسيحي اليهودي الاستعماري العالمي، منها :

1 – عقدة تشويه ترجمات القرآن :

لعل من أخطر الأمراض التي عصفت بالغرب اليهودي المسيحي وكشفت كذب ادعاءاته حول الإنصاف والموضوعية العلمية ، والحياد الفكري والمعرفي ، والانضباط المنهجي ، والدقة في التحليل والتدقيق والدرس والنقد ، مسألة ترجمة معاني القرآن ، حيث تغيب كل هذه الضوابط العلمية والمنهجية عند التعامل مع هذه المسألة ، في الوقت الذي يتشدد في الحفاظ على هذه الضوابط في سائر عملياته الأخرى . وقد تتبع الدارسون المسلمون والعرب هذه القضية بدقة ، متناولين الأسس والكيفيات والوسائل التي تعامل بها الغرب المسيحي اليهودي مع القرآن ، فقد نشرت الباحثة الأستاذة فوزية العشماوي (32) مقالا تلخص فيه خلاصة دراستها حول هذا الموضع فقالت : ((.. في البداية لم يهتم الغرب بمضمون الدين الإسلامي ، بقدر اهتمامه بشخصية الرسول الكريم ، وبعبقريته العسكرية التي فتحت امبراطورية واسعة في زمن وجيز ، وبعد ذلك بدأ الغرب يكتشف القرآن الكريم ولاسيما بعد استقرار المسلمين في الشام والأندلس .. وأول محاولة لترجمة سور القرآن الكريم في أوربا كانت في طليطلة في القرن الثالث عشر الميلادي ، بترجمة سورة المعارج إلى اللغة الإسبانية، وقد أخذت الكنيسة الكاثوليكية تهتم بمضمون الدين الإسلامي لتتمكن من مواجهته ومحاربته .. ليس بهدف دراسة هذا الدين ومعرفته ودراسته دراسة موضوعية بل بغرض دحضه ومحاربة أفكاره وتشويه صورة نبيه محمد **صلى الله عليه وسلم** .. وقد عرض المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير 1900– 1973م الخبير في ترجمات

القرآن الكريم في أوربا في كتابه القيم الذي يحمل عنوان " القرآن " تاريخ ترجمات القرآن منذ بداياتها الأولى في القرن الثامن الميلادي وحتى عصره ، حيث حاول إظهار ووصف مضامين تلك الترجمات التي بدت في معظمها مشوهة محرفة غير أمينة ومسيئة للقرآن ولرسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى ترجمة جاك بيرك الأخيرة التي يُروج لها بأنها أفضل ترجمة منصفة للقرآن كانت فيها أخطاء جسيمة ..)) . (33)

وقد تتبعت الباحثة الكثير من الأخطاء في الترجمات التي وصلت حد التحريف والتشويه والخيانة في نقل روح وأبعاد المعاني ، وخلصت إلى أن أفضل ترجمة للقرآن الكريم إلى أي لغة أجنبية هي التي يقوم بها عالم عربي مسلم ، ويقوم بمراجعتها خبير لغوي في اللغة الأجنبية المترجم إليها . (34)

2 – عقدة الكراهية المسبقة :

في سياق عرضه لعلاقة المثقف العربي بغيره في الغرب ، ومكانته الاجتماعية في سلم المجتمع المدني هناك ، ينقل الأستاذ الكاتب " حسن مدن " في مقاله القيم " على تخوم ثقافتين " محنة مثقفين عربيين متميزين عاش أحدهما في أمريكا ومات فيها ، وعاش الثاني في فرنسا ومازال يعيش فيها ، حيث يتألم " إدوارد سعيد " حد اليأس الجارف ، ويتبرم من موقعه في المجتمع الغربي الأمريكي ، وينهار " محمد أركون " حتى الجزع والذهول من نظرة الآخر الشوفينية إليه ، يقول الأستاذ حسن مدن : ((.. باحث سوري تحدث مرة عما دعاه محنة " مثقف ما بين الحضارات " وطرح سؤالا مهما عن الفرق بين مثقف عربي يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية وآخر يعيش ويدرس في فرنسا مثلا ، حيث جاءت ما بعد الحداثة ردا على تخمة الحداثة نفسها ، واقتطف للرد على هذا السؤال كلاما للراحل " إدوارد سعيد " الذي عاش ومات في أمريكا ، ولـ " محمد أركون " الجزائري المقيم في فرسنا ، يقول إدوارد سعيد : " حياة الفلسطيني العربي في الغرب ، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية تبعث اليأس في النفس ، وحين يتسامح فيعترف به ، فبوصفه إما أمرا مزعجا ، أو شرقيا " . أما الإجابة القاصمة

فهي تلك التي يعطيها " محمد أركون " حين يقول : " على الرغم من أني أحد الباحثين المسلمين المعتنقين للمنهج العلمي ، إلا أنهم يستمرون في النظر إليّ بوصفي مسلما تقليديا ، فالمسلم في نظرهم ، أي مسلم ، شخص مرمي في دائرة جهاده المقدس وقمعه للمرأة وجهله بحقوق الإنسان وقيم الديمقراطية ومعارضته الأزلية والجوهرية للعلمنة"، ويضيف أركون : " هذا هو المسلم ، في رأيهم ، ولا يمكنه أن يكون إلاّ هكذا " ..)) . (35)

3 – عقدة تبرير الفوضى العالمية :

في معرض تناوله لتأثيرا الفلسفة الفوضوية العالمية التي تمارسها وسائل الإعلام الغربية يقول روجيه غارودي : ((.. كتاب فوكوياما المستشار في الإدارة الأمريكية حول نهاية التاريخ ، هو التعبير النموذجي لما أسميه أعراض 92م إنه نموذج لإيديولوجية تبرير الفوضى العالمية الجديدة ..)) . (36)

وما يعرضه روجيه غارودي في كتابه الشهير – الإرهاب الغربي – عن اسطورة الاستثنائية العبرية والزواج مع الآخر وعقد المعاهدات معه ، والنتائج التاريخية لأسطورة شعب الله المختار ، وأسرار الكهنوت المسيحي منذ تدجيل الإنجيل وتعاليم الرب حتى البابا بول الثاني ، واعتناق المسيحية للديانة اليهودية وتهاجن الرومنة والتهويد والهلمنة ، وتوحيد بطون الناس في سوق واحدة ، وروائح المواكب الجنائزية للمعارضين للسياسية الأمريكية في نهاية القرن الماضي .. وخطاب الثناء على الفساد الغربي ، والولايات المتحدة تحت إرادة الله وهي فوق الجميع .. وديمقراطية البيض فقط ، والموت البطيء للآخر الضعيف ما يبين لنا تفاقم العقد المرضية في الجسد الغربي ، الذي أفضى به إلى الموت . (37)

ولعلنا نسوق بعض الطروحات النظرية التي أسميناها تجاوزا نظرية ، في سياق التفاعل والتواصل الإيجابي مع الآخر القوي ، ما يدفعه للتريث وإعادة النظر ، فيما سمي بنظرية اعتذار الحضارات .

4 – نظرية اعتذار الحضارات ، أو تصالح وتسامح الحضارات :

ومن خلال القراءة السريعة والمختزلة لأصحاب هذه النظريات نتبين الاتجاهات الثلاثة التي أفرزتها في الساحة الثقافية والسياسية العالمية ، حيث يستحيل التواصل المتكافيء والتفاهم الصحيح ، والتعايش السوي ، والعيش الكريم للآخر الضعيف والمغاير في ظل هيمنة أصحاب نظرية صدام الحضارات ، سواء ممن يتبنون نظرية حوار الحضارات أو تعارف الحضارات .

وعليه ، يمكن حصر الرؤية وضبطها في النسق المعرفي التالي :

1 – نسق الصراع والهيمنة والغطرسة الصليبي اليهودي .

2 – نسق الحوار والتنازل .

3 – نسق التعارف والتواصل الإيجابي .

وفي ظل حالة الانسداد الحاصلة بين أصحاب هذه النظريات ، يمكننا وضع لمسات أولية على نسق منهجي جديد ، يفضي بنا إلى وضع قراءة علمية لتلاقي الحضارات حول المشترك والراهن والهم والمصير والهدف الإنساني العام

ويتمثل نسقنا النظري في حمل أصحاب كل نظرية للاعتراف بجملة من المبادىء العامة ، والاعتقاد بجملة من المسلمات البدهية المشتركة ، الضرورية واللازمة لتجاوز التعثر الحاصل بين أصحاب هذه النظريات . وذلك بتقديم القراءة الموضوعية لتاريخ العلاقات بين شعوب وأمم وحضارات المعمورة في القرون الماضية ، وتسجيل حيثيات التدافع الذي اكتنف تلك العلاقات الحضارية ، دونما تحيز أو تنكر لوقائع ومجريات التدافع .

*** مبادىء النظرية :**

وتأمينا من الوقوع في زلل الإنية والانتصار للذاتية ، وتغليبها على الروح الموضوعية ، نقترح الخطوات المنهجية العلمية التالية :

1 – تقديم قراءة تاريخية وصفية موضوعية لعمليات التدافع بين الحضارات القديمة السابقة للميلاد كحضارة الحثيين والكلدانيين والآشوريين والبابليين والفينيقيين ..

2 – تقديم أدبيات وقوانين التعامل بين تلك الشعوب والأمم والحضارات .

3 – تقييم سنن التدافع وفق معايير تلك الشعوب والحضارات ، لا وفق معاييرنا الراهنة .

4 – تقديم حصيلة علمية تقريبية لعمليات التدافع الحضاري بين تلك الشعوب والحضارات .

5 – ضبط معايير وقوانين العلاقات الدولية بين الحكومات والشعوب والحضارات ، وضرورة الفصل العلمي والمنهجي بين تدافع الشعوب ، والدول ، والحضارات ضمانا لتحديد المسؤولية المباشرة لكل طرف على حدة .

6 – تقديم قراءة علمية ومنهجية للعلاقات الدولية السائدة في القرون السبعة الميلادية الأولى ، التي شهدت بروز الدين الإسلامي ، وعلاقة الممالك والدول بأتباع هذا الدين ومواقفهم منه .

7 – موقف هذا الدين وتعاليمه النظرية من العلاقة بالآخر : شعوبا ودولا وحضارات ، ومدى إيجابيتها وسلبيتها .

8 – تقييم الوقائع والحوادث والسجالات التدافعية بينه وبين القوى المسيطرة على شعوب الأرض ، وموقفه النظري والعملي منها .

9 – تقييم حالة العالم بعد اقتدار المارد الإسلامي على الإطاحة بكافة الدول ، وضم سائر الحضارات وهضمها والاعتراف بها وصهرها في بوتقته المتميزة .

10- تقيم مدى استفادة العالم وشعوبه وحضاراته من سلطان الدولة المسلمة ، ومن عطاءات الحضارة العربية الإسلامية .

11- تقييم حالة الضرر المتأتية للعالم ولشعوبه ولحضاراته عن هذه السيطرة الحضارية العربية الإسلامية .

12- تحميل المسؤولية لكل من ارتكب فظائع وجرائم في حق المقدسات والعمران والبشر الآمنين ، بعرض صور تلك الفظائع .

13- فتح المجال لتصفح أحداث التاريخ من قبل الدارسين الجادين والموضوعيين ، بناء على آثار وحفريات ونقوش ووثائق وعهود وكتابات تلك العصور .

14- الاستعانة بكتابات الدارسين المنصفين لحقائق التاريخ ، ولوقائع العلاقات الإنسانية .

15- ترك فرصة علمية ومنهجية ونفسية لأصحاب النظريات الثلاث لتقبل نتائج التقييم .

16- ضرورة تقبل تلك النتائج ، والالتزام بقبولها أرضية للتجسير بين سائر حضارات الأرض ، ولاسيما فيما له علاقة وطيدة بالراهن المصيري المشترك لسكان المعمورة ، مع ضرورة احتفاظ كل جنس وعرق بخصوصياته لممارستها ضمن منظومته ، والتفتح الإيجابي على الآخرين .

*** قراءة في منهجية المبادىء :**

إن عرض مثل هذه المبادىء على أصحاب النظريات الثلاث يعد خطوة علمية ومنهجية تفضي بهم إلى تقديم قراءة مشتركة لها ، وستحظى في اعتقادي بالقبول المبدئي ، لكونها مبادىء علمية مجردة من جهة ، ومنهجية عمل موضوعي يفضي إلى وضع حد للأزمة الفكرية الحاصلة بين أصحاب هذه النظريات من جهة ثانية ، شريطة أن يستمر الجميع في الانخراط والحماس لمتابعة النتائج ، وألا يتراجع أصحاب نظرية الصراع وينكصوا على أعقابهم في حالة الحصول على نتائج مخالفة لمعتقداتهم وتصوراتهم ورآهم ، ولما أثبتوه في مدوناتهم النظرية على أنه هو الأصلح والأنسب للفكر وللعمران البشري في العصر الحالي .

وبناء على القراءات العلمية والموضوعية والمنهجية التي يقوم بها أصحاب هذه النظريات المشتركة لوقائع الأحداث وتدافع الحضارات ، وبإجراء مقارنات وموازنات وتقييمات ومفاضلات عميقة للحقائق التي يتأسس عليها عمران تلك الأمم والشعوب ، ولتأسيساتها الحضارية ومستوياتها المدنية والمعنوية والعلمية والتمكنية ، يمكن معرفة الحضارة المنتجة والإيجابية والمتفضلة على تطور وتقدم البشرية من الحضارات المستهلكة والمقتاتة من غيرها .

والكم الهائل من الكتابات التاريخية المنصفة التي درست حضارات الأمم القديمة السابقة لميلاد سيدنا المسيح **عليه الصلاة والسلام** تبين المستوى

الحضاري الذي وصلته تلك الأمم والشعوب ، كما تبين مستوى الحضارات الغازية والمتغلبة كالحضارة اليونانية يومها بقيادة الإسكندر المقدوني ، فاتح ومدمر العالم القديم .

وقد تفضي نتائج القراءة بوضع مقارنات رقمية ومبدئية وقيمية معا لحالات التدافع بين أمم وشعوب حضارات العالم القديم ، عبر بوابات الفتح الإسلامي للعالم ودوافعه في القرن الهجري الأول السابع الميلادي ، وعلاقته الوطيدة بنشر مبادئه من جهة ، وحاجة الأمم والحضارات الماسة له ولمبادئه ، الأمر الذي أدى لوقوع التصادم مع الكيانات الحاكمة ، التي كانت تتسم بظلم رعاياها الذين انقلبوا عليها ، وصاروا أتباع حقيقيين للدين الإسلامي ، تمهيدا لانخراطهم النوعي والكثيف في الحضارة الإسلامية ، التي بنوها بسواعدهم وعقولهم .

والحقيقة التي يجب أن نصارح بها أنفسنا أن العرب المسلمين خرجوا من الجزيرة العربية يحملون معهم دين الحضارة ، وضمير القابلية للتحضر ، ولم يكن معهم من وسائل المدنية شيء مهم يستحق الذكر ، أمام ما عند الفرس والروم وغيرهم ، فوجدوا عند الشعوب والأمم المستضعفة من قبل الطغم الحاكمة كل أسباب المدنية ، فزاوجوا وارتقوا بقابليتهم الحضارية مع المستوى المدني الرفيع لتلك الأمم ، التي كانت بحاجة لتلك الجرعات المعنوية والأدبية من العدل والمساواة والصفح والإخاء والطمأنينة والأمن والتسامح والتدين الصحيح .. فنبتت شجرة الحضارة العربية الإسلامية في سائر العالم القديم ، ولم يكد يمضي قرن على الفتح الإسلامي للعالم القديم حتى صار الدين الإسلامي يقوم بحفظه ودراسته وتدوينه وتعليمه ونشره أمم وشعوب الأرض المفتوحة ، حيث كان يقابل كل عشرة علماء من الأعاجم عربي واحد ، أولا يكاد يكون ، وصارت اللغة العربية أداة طيعة بيد الفرس والروم والديلم والترك ، وبزوا بها الشعراء العرب .

وسلم العرب لواء الحياة الثقافية والعلمية واللغوية والأدبية والتربوية والفنية .. للعلماء الأعاجم ، بل إن الخلفاء أنفسهم صاروا من تلاميذهم ، ووضعوا مصير صحتهم وأجسادهم وعلاجهم بيد الأعاجم ، فضلا عن وصولهم درجات

الوزارة والرئاسة والحكم والحجابة والكتابة والوصاية ، وذلك بفضل انفتاح المنظومة الحضارية الإسلامية على سائر شعوب وحضارات الأرض ، عبر الزواج والمصاهرة والتجاور في السكنى والتأثير والتأثر وعلاقات العمران البشري .. على حد ما ذهب إليه الكثير من الدارسين المنصفين ، الذي يجرون الكثير من المقارنات على المستويين الأدبي والمادي لحضارات وثقافات الآخر .

وقد تفضل بوضع مثل هذه الخلاصات العلمية علماء ومؤرخون ودارسون محايدون ، أمثال (غوستاف لوبون) في كتابه الشهير (حضارة العرب) ، و (زيغريد هونكة) في كتابها الشهير (شمس الله تسطع على الغرب) ، و (روجييه غارودي) وسلسلة كتبه الشهيرة عن (حقيقة إسرائيل والصهيونية) و (حفارو القبور) و (الإرهاب الغربي) ، وغيرهم من المنصفين ، ممن قدموا نماذج مقارنة بين الحضارتين العربية الإسلامية واليهودية الصليبية في العلاقات بين دولة العباسين والغاليين بفرنسا عهد هارون الرشيد وشاركان ، ووصفهم لحالة وصحة ونظافة رسله لهارون الرشيد ، حيث كانت لعادة في الحضارة الغربية ترك الاغتسال لسنين أو لشهور عديدة ، أو عن حالات الفزع والرعب التي ملأت بلاط شارلكان وهو يرى الساعة التي قدمها له هارون الرشيد هدية ..

ولكن السؤال المركزي المتكرر هل يقبل الغرب بهذا أم يرفضه ؟ وهل يرضى بأن يعترف بأننا أصحاب حضارة كان لها الفضل في إنارة العالم لقرون طويلة ؟ أم سيصر على معصيته وغيه في التنكر لنا ؟ وهل سيعترف بديننا الإسلامي ؟ الذي أثبتت حقائق العلم والكشوفات أنه صحيح وصائب ولا تناقض فيه ، وهو من عند الله سبحانه وتعالى ، لا من عند محمد **صلى الله عليه وسلم** .

وهل سيعترف بجرائمه في الحروب الصليبية في الشرق (1095-1291م) وفي الأندلس (1088-1492م) ، وفي حرب الثلاثمائة سنة (1492-1792م) على ساحل جنوبي البحر الأبيض المتوسط ؟ وهل سيعترف بأكاذيبه وخداعه لحقائق التاريخ ، عن اكتشاف العالم القديم ، واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ؟ وهل سيعترف بجرائمه تجاه عبيد إفريقية ؟ وهل سيعترف بجرائمه الاستعمارية البشعة

التي بدأت مع الكشوفات الاستعمارية وانتهت بعد تحقيق الاستقلال الشكلي في النصف الثاني من القرن العشرين ؟ وهل سيعترف بجرائمه التي لم تنته إلى اليوم في حق الإنسانية ؟ كظواهر الاحتباس الحراري، وتوسع ثقب الأوزون ، ودفن النفايات النووية في البلاد الضعيفة ، وتلويث البيئة والبحار ، وتجارة الأسلحة ، وتبييض الأموال ، وبيع المخدرات ، والتجارة بالرقيق الأبيض ، وبالأعضاء البشرية ، ونشر الإباحية ، وتعميق ثقافة والفجور والفسق والإلحاد ؟ وهل سيعترف بدعم الأنظمة الدكتاتورية بتسلطها الأرعن على الشعوب العربية والإسلامية ؟

هل سيعترف بالمآسي التي سببها لدعم اليهود لاحتلال فلسطين وطرد شعبها العربي المسلم منها ؟ هل سيعترف بنهب ثروات الشعوب الضعيفة ؟

إننا في عرضنا لكل هذا لسنا في موضع اتهام للآخر ، كما أننا لسنا في موضع دفاع مسبق أمام الآخر ، ولكننا نمتلك بأيدينا الكثير من الحقائق التي تعزز موقفنا ، وتؤيد نظرتنا العادلة ، ولنفترض جدلا أننا استطعنا تجميع المئات والآلاف من الاعترافات والشهادات الصحيحة والصادقة عن فضل حضارة العرب والمسلمين وفضل دينهم على أمم وشعوب وحضارات الأرض ، هل سيكون كافيا لردع صاحب الغي عن غيه ، وإرجاع الفضل لأصحابه ، ولو باعتراف الآخر به أدبيا ومعنويا وأخلاقيا وحضاريا . هذا ما لا أعتقده البتة بحكم معرفتي وخبرتي بالصلف المرضي الذي يحياه الغرب .

*** والخلاصة :**

وفي ظل حالة الانسداد الفكري الراهنة مع الغرب ، وانعدام ثقافة الاعتراف بخطايا الذات التاريخية لدى النخب والطليعة الغربية ، وغياب أدبيات الاحترام والاعتراف بحق الآخر في عرض وجهة نظره العادلة ، نتساءل أخيرا من سيعترف ؟ بمن ؟ ومن سيصالح ؟ من ؟ ومن يعتذر ؟ ممن ؟ نحن أم أصحاب نظرية الصراع الدامي ؟

وهل المطلوب منا اليوم أن نتحمل أخطاء غيرنا النائمة في أحضان التاريخ، وحمل أوزارهم مع أوزارنا العديدة ، إذ أن من مبادئنا نحن المسلمين مبدأ

تحديد المسؤولية الشخصية لاستحقاق الثواب أو العقاب ، فقد زخر القرآن الكريم بمبادىء { **ولا تزر وازرة وزر أخرى** } ، و { **تلك أمة قد خلت لها كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون** } (البقرة : 141) . غير أن الغرب لما فشل في تحقيق نظرياته على أرضية الواقع بقوة الحديد والنار والمال والاقتصاد والثقافة والإعلام ، لجأ لحيلة تحديد الخطيئة وتحميل الأوزار، انطلاقا من تخبيطاته العقدية عن نظرية الفداء الإلهي الكاذب ، التي يحتمي بها ، ويبتز بها الآخر ابتزازا سخيفا ، وذلك بهدف وضع العرب والمسلمين في موضع المسؤولية التاريخية عن كل ما وقع من مآسي للإنسانية ، طالما قد وجد أساطنة الفكر الغربي ملجأهم الكنسي الأسطوري ليختفوا وراء عباءة الرب ، الذي قدم ابنه فداء لما اقترفوه وما يقترفونه وما سيقترفونه من جرائم في حق الإنسانية عموما ، والعرب والمسلمين خصوصا .

آملين بهذا الطرح الأسطوري حرمان العرب والمسلمين من فسحة للراحة والطمأنينة والتنمية ، التي ستوفر لهم مقومات الإقلاع الحضاري الشاملة ، في توليفة أسطورية عجيبة يلجؤون إليها في حال تجميع أدوات الغلبة والتمكن من رقاب الآخر ، حيث يسمح لهم بركوب مطايا الأسطورة والغيب الكاذب ، وحرمان الآخر من الغيب الصادق الذي لا مراء فيه .

ولكن أما آن لأصحاب هذه النظرية أن يضعوا حدا لأفكار الدماء الزاحفة على الأرض ، وثقافة القتل والتهتيك العشوائية ، وروح الاغتصاب والعنف الدموية .. تلك هي المشكلة الأخلاقية التي يعانون منها ، والتي نتحمل نحن العرب والمسلمين أوزارها الباهظة ، وفي انتظار عودة وعيهم ، وتحقق رشدهم ، ماذا يجب علينا أن نفعله ؟ سؤال موجه لكم ، ولأولي الأمر ، وللنخب الطليعية في الأمة ، تحت أي نظرية ننطوي ؟ وهل يقبل الآخر عرضنا بطرح نظرية الاعتذار ؟ أم يرفضها كعادته ؟

وفي انتظار كل هذا وذاك ، وفي ظل الصمت والتراخي العربي والإسلامي الرسمي والشعبي نبرأ إلى الله من هؤلاء ، ولنعول على سواعدنا المؤمنة لتفتيق أمل

النجاة في القلوب والنفوس الطليعية المؤمنة ، ولنصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز .

مسـرد الإحالات:

(1) قدم الأستاذ الدكتور عبد الستار الهيتي دراسة في سلسلة كتاب الأمة رقم 99 ، بعنوان : - الحوار الذات والآخر – من تقديم الشيخ عمر عبيد حسنة ، عرض فيه بدقة واختصار مختلف قراءاته في هذا الباب ، وشروحاته وفهمه للحوار من الناحية اللغوية والاصطلاحية ، ومن ناحية المفهوم والأنواع والأسس والضوابط والوسائل والأساليب والمناهج وآداب وأخلاق المتحاورين ودوائر الحوار الذاتي والغيري ، كما تناول قضية الحوار بين الشعوب وعلى رأسها الحوار الإسلامي المسيحي ، وقد ضبط مجموعة من الأسس لأي حوار إسلامي مع الآخر (الغرب) ضمن جملة من الأسس والشروط هي :

1 – أن يكون الحوار متكافئا تتوفر فيه شروط المساواة والإرادة المشتركة لبلوغ أهداف الخير .

2 – أن يهدف الحوار إلى تحقيق المصالح المشتركة للطرفين التي لها علاقة بالتقدم العلمي في كافة مجالات الحياة الفكرية والثقافية والاقتصادية ..

3 – أن يكون الحوار متحضرا ومترفعا عن الموضوعات التي تتعلق بالخصوصيات العقائدية والأخلاقية للأمم والشعوب التي من شأنها إذا أثيرت أن تؤدي إلى وقف الحوار وعدم فاعليته .

4 – أن يكون الحوار معدا وفق برامج مسبقة يكون الغرض منها التواصل والتفاهم لتحقيق التفاعل الحضاري ، بعيدا عن فكرة التنازع المقيت . انظر : عبد الستار الهيتي ، الحوار الذات والآخر ، سلسلة كتاب الأمة ، قطر ، رقم 99 ، محرم 1425هـ ، ص 152 و 153 . كما عرض الكثير من الباحثين طروحاتهم حول هذا الموضوع أشهرهم وأسبقهم الشيخ محمد حسين فضل الله في كتابه الحوار في القرآن الكريم ، وناصر الدين السد وغيرهم ..

(2) صموئيل بي هانتيغتون ، الإسلام والغرب – آفاق الصدام - ، ترجمة مجدي شرشر ، مكتبة مدبولي ، الطبعة الأولى ، 1415هـ 1995م ، ص 5 و 6 .

(3) كتب فوكوياما في مطالع شهر مارس في " التايمز " الأمريكية مقالات تصحيحيا اعتذاريا ، يتأسف فيه عن النتائج الخاطئة التي توصل إليها في كتابه " نهاية التاريخ " ، والتي كانت تتلخص في توقف عجلة الإبداع والتطور البشري عند حدود الرسمالية الليبيرالية الحرة والديمقراطية ، حيث تبين من خلال التعاطي الغربي اليهودي المسيحي الأمريكي والأوربي مع العالم قاطبة والعالمين العربي والإسلامي خصوصا طبيعة النتائج الكارثية التي توصلت إليها الديمقراطية الغربية في فلسطين والعراق وأفغانستان ولبنان والصومال والسودان..

(4) صموئيل بي هانتيغتون ، الإسلام والغرب – آفاق الصدام - ، ص 11 .

(5) انظر مقالنا المنشور في مجلة الوعي الإسلامي ، الكويت ، رياضات الشعوب وحوار الحضارات ، عدد 484 ، يناير 2006م.

(6) مصطلح توراتي ظهر في التلمود وفي شروحات التوراة ، وبرز بقوة في بروتوكولات حكماء صهيون . انظر : رشاد الشامي ومحمد الهواري وعبد الخالق بكر ، دراسات وأبحاث في التوراة والتلمود ، محاضرات علمية لطلبة الدراسات العليا قسم أصول الدين ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة سنوات 1987-1989م .

(7) يجمل الدارسون العرب والمسلمون تخوفات الغرب من العالم الإسلامي في نقطتين أساسيتين هما : الخوف من تضاعف الهجرة نحو بلاد الغرب ، الخوف من انتشار المد الأصولي . وبمقابل ذلك يسجل المسلمون والعرب من الغرب تخوفاتهم التالية :

1 – خلفية الحروب الصليبية وتدميراتها الدموية وتأثيراتها البشعة على مخيال الأمة الإسلامية والعربية .

2 – الاستعمار الأوربي وتأثيراته البشعة بشكليه القديم والحديث على الأمة العربية والإسلامية .

3 – مناصرة الغرب لإسرائيل وانتزاع أقدس أراضيهم وتدعيم الغزاة الغاصبين .

4 – التدخل السافر في شؤون العالم العربي والإسلامي وفرض الشروط على حكامه .

5 – الطمع في ثروات الأمة واستنزافها بأبخس الأثمان .

6 – المحافظة على مصالح الغرب في البلاد العربية والإسلامية ولو على حساب سيادتها .

انظر : عبد الستار الهيتي ، الحوار الذات والآخر ، سلسلة كتاب الأمة ، قطر ، رقم 99 ، محرم 1425هـ ، ص 166و 167 .

(8) سبقت الإشارة إلى هذه الشروط والضوابط في هامش رقم 1 .

(9) كما يسعى إلى ذلك مثقفو منتدى الكلمة بلبنان .

(10) أحمد رمزي ، البعد الديني للضربة الأمريكية للعراق وعلاقته بمخطط إسرائيل الكبرى ، جريدة الأيام الجزائرية ، الأحد 2006/12/24م الموافق 03/ذو الحجة /1427هـ عدد 386 ، ص 16 ، بتصرف .

(11) جاء في قاموس الكتاب المقدس الصادر عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى أن " هر مجدون " اسم عبري معناه " جبل مجدو " وهو موقع تنبأ كتاب الرؤيا أنه سيتحول إلى ساحة للحرب يجتمع فيه كافة ملوك الأرض في يوم قتال الرب ، وترتبط " مجدو " في الاعتقاد القديم بأنها الأرض التي كان الفاتحون القدامى يعتقدون أن أي قائد يسيطر عليها يمكنه أن يصمد أمام الغزاة ، ويعتقد اليهود ومن تبعهم في ذلك من البروتستانت أن جيشا من مائتي مليون جندي يأتون إلى " مجدو " لخوض حرب نهائية . وهو اعتقاد يهودي قديم ورد في سفر " حزقيال " وتضيف بأنه يوم مجيء قوم " ياجوج ومأجوج " لذلك المكان ويدمرهم الرب يومها ، وينقذ اليهود والمسيحيين ، وهو ما أكدته التلمود أيضا ، ضمن حشد من الأساطير الوثنية التي تملأ التنبؤات القادمة .

نقلا عن : * أحمد رمزي ، البعد الديني للضربة الأمريكية للعراق وعلاقته بمخطط إسرائيل الكبرى ، جريدة الأيام الجزائرية ، الثلاثاء 2006/12/26م الموافق 05/ذو الحجة /1427هـ عدد 388 ، ص 16 ، بتصرف .

(12) أحمد رمزي ، البعد الديني للضربة الأمريكية للعراق وعلاقته بمخطط إسرائيل الكبرى ، ص 16 ، بتصرف .

(13) أحمد رمزي ، البعد الديني للضربة الأمريكية للعراق وعلاقته بمخطط إسرائيل الكبرى ، ص 16 ، بتصرف .

(14) أحمد رمزي ، البعد الديني للضربة الأمريكية للعراق وعلاقته بمخطط إسرائيل الكبرى ، ص 16 ، بتصرف .

(15) هانز هوينج و جيرهارد شيبورل ، ترجمة : رانية خلاف ، حروب الرحمة ، مجلة دير شبيغل الألمانية ، 2003/02/17م ، جمع عادل المعلم ، مقدمة في الأصولية المسيحية في أمريكا ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1425هـ 2005 ص 23 و 24 .

(16) جراهام فرانكلين : هو ابن الواعظ المسيحي الأصولي الأمريكي بيلي جراهام النجم الثاني الأكبر لحركة ميلاد المسيحية الأصولية ، الذي تولى العمل الديني بالنيابة عن أبيه ، وأكسبه هذا العمل 126 مليون دولار عام 2000م ، وهو الذي أدى الصلاة الافتتاحية في حفل ترسيم رئيس الولايات المتحدة الأمريكية جورج بوش .

(17) هانز هوينج و جيرهارد شيبورل ، ترجمة : رانية خلاف ، حروب الرحمة ، مجلة دير شبيغل الألمانية ، 2003/02/17م ، جمع عادل المعلم ، مقدمة في الأصولية المسيحية في أمريكا ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، ص 14 و 24.

(18) جورج إم مارسدن ، فهم الأصولية والإيقانجيكية ، ص 77 ، نقلا عن : عادل المعلم ، مقدمة في الأصولية المسيحية في أمريكا ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1425هـ 2005م ، ص 61 .

(19) صمويل بي هنتجتون ، الإسلام والغرب آفاق الصدام ، ص 11 .

(20) صمويل بي هنتجتون ، الإسلام والغرب آفاق الصدام ، ص 11 .. 21 ، بتصرف .

(21) سفر التكوين في الإصحاح 15 ، وفي الفقرات 18 .. 21 .

(22) سفر الخروج في الإصحاح 21 : الفقرة 1 .. 11.

(23) عبد الودود شلبي ، حتى لا نخدع ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1399ه 1979م ، ص 117 .. 142 .

(24) سفر العدد في الإصحاح 31 : الفقرة 13 .. 24 .

(25) سفر التثنية الإصحاح 7 الفقرة 1 .. 5 .

(26) سفر التثنية في الإصحاح 7 الفقرة 6 .. 16 .

(27) سفر التثنية الإصحاح 20 الفقرة 10 .. 15 .

(28) سفر التثنية الإصحاح 20 الفقرة 16 .. 18 .

(29) سفر التثنية في الإصحاح 23 الفقرة 15 .. 20 .

(30) لمزيد من التوسع انظر : الموسوعة اليهودية لعبد الوهاب المسيري .

(31) صمويل بي هنتجتون ، الإسلام والغرب آفاق الصدام ، ص 26 ، بتصرف .

(32) أستاذ اللغة العربية والحضارة الإسلامية بجامعة حنيف بسويسرا .

(33) كيف تعامل الغرب مع القرآن الكريم ، مجلة العربي ، عدد 578 ، يناير ، 2007م ، ص 24 ..29 ، بتصرف .

(34) المرجع نفسه ، ص 29 .

(35) حسن مدن ، على تخوم ثقافتين ، جريدة الأيام الجزائرية ، الخميس 2006/12/28م الموافق 07/ذو الحجة /1427هـ ، عدد 390 ، ص 16 .

(36) روجيه غارودي ، حفارو القبور ، ترجمة : عزة صبحي ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، 1423هـ 2002م ، ص 86 .

(37) انظر روجيه غارودي ، الإرهاب الغربي ، ج 1 و ج 2 .